الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢ه/٨٦٨-٩٠٥م)

اسس الدولة الطولونية احمد بن طولون ،وهو من المماليك الاتراك .تزوجت والدته بع وفاة والده من الامير بايكباك التركي الذي عينه الخليفة المعتز واليا على مصر في عام (٢٥٤هـ/٨٦٨م) فأرسل بدوره احمد بن طولون ليتولى حكم مصر بالنيابة عنه ،فساعدته الظروف السياسية والاقتصادية المتدهورة في تثبيت اقدامه فيها .كما اسند اليه الخليفة المهتدي ولاية الثغور الشامية على اثر وقوع الاضطرابات فيها .واضحى ابن طولون حاكم مصر من قبل الخليفة مباشرة بعد وفاة كل من بايكباك وخلفه ياركوج في عام (٢٥٩هـ/٨٧٣م).

كان ابن طولون حافظا للقرآن فقيها صالحا ،شرع ابن طولون في القيام بأعمال عمرانية تعبر عن مدى اهتمامه الشديد بمصر ،ومتطلعا من خلالها الى اقامة دولة خاصة به منفصلة عن الخلافة ،فأسس مدينة القطائع وهي احدى ضواحي الفسطاط ،وبنى فيها مسجد ابن طولون المشهور والذي لايزال قائما الى الان،وكذلك بنى بيمارستان للمرضى ،وقوى الجبهة الداخلية من خلال تنمية موارد الثروة ،ومضاعفة الدخل في ميادين الانتاج ،واصلح اقنية الري والسدود الخربة ،وحظر على الموظفين قبول الهدايا .ونتيجة لهذه الاصلاحات تجمع لابن طولون اموالا ضخمة اعانته على انشاء جيش قوي يدين له بالولاء ،ويساعده في تحقيق مشروعاته الانفصالية والدفاع عنها .

لعل المشكلة الكبيرة التي واجهت ابن طولون هي علاقته بأبي احمد الموفق طلحة الذي سيطر على الشؤون العامة في بغداد ،وقاد حركة اصلاحية بهدف النهوض بالسلطة المركزية ،لذلك سعى جاهدا للقضاء على الدولة الطولونية التي انفصلت عن الادارة المركزية ،وبدأت تتطلع نحو ضم بلاد الشام ،لكن محاولاته باءت بالفشل .وحصل ابن طولون على تقليد من الخليفة ،بفضل علاقته الحسنة به ،بحكم مصر وبلاد الشام بالاضافة الى ثغورها .

وحاول ابن طولون في غمرة الصراع مع الموفق طلحة ،الى نقل مقر الخلافة الى مصر مستغلا الجفاء الذي نشأ بين الخليفة والموفق ،الا انه فشل في ذلك .ويبدو ان الموفق لم يركن الى الهدوء وسعى جاهدا الى ازاحة خصمه ،فعزله عن مصر وبلاد الشام وولى اسحاق بن كنداج على اعماله ،فتراجعت نتيجة ذلك قوة ابن طولون .ثم دخل الطرفان في مفاوضات من اجل احلال الوفاق بينهما ،لكن المنية عاجلت ابن طولون قبل ان تنتهي،وذلك في(اوائل شهر ذي القعدة عام ٢٧٠هـ/ايار عام ٨٨٤م) ،وخلفه ابنه خمارويه الذي ورث مهمة الدفاع عن الارث الطولوني في مصر والاحتفاظ ببلاد الشام ،مع استمرارعداء الخلافة للطولونيين.وفشلت محاولات الموفق في خلعه او التغلب عليه في ساحة القتال ، وبخاصة بعد اندحاره امام القوات

الطولونية في معركة الطواحين على نهر ابي فطرس جنوبي فلسطين في عام (٢٧١هـ/ ٨٨٤م).

واضحت الدولة الطولونية في عهده قوة تملأ مكانها بجدارة ،وعلى الرغم من هذه الانتصارات التي حققها خمارويه ،فقد مال الى السلام ،وبادر بطلب الصلح مفتتحا بذلك مرحلة جديدة من العلاقات مع الخلافة العباسية .وضمنت المعاهدة التي وقعت بين الجانبين ،للطولونيين ،الولاية على مصر وبلاد الشام والثغور طوال ثلاثين سنة مقابل دفع جزية هزيلة .وتدعمت هذه العلاقات الجيدة بالمصاهرة عندما تزوج الخليفة المعتضد ابنه خمارويه قطر الندى.

توفي خمارويه في عام (٢٨٢هـ/٨٥٩م) مقتولا على يد بعض غلمانه ،فأضطربت الدولة الطولونية بعد وفاته ،واستمرت بالانحدار خلال السنين العشر الاخيرة من عمرها ،وذلك بسبب تدخل الجند ،وتنافس الامراء ،حتى انتهت على يد الخليفة المكتفي الذي دخلت قواته الى مصر في عام (٢٩٢هـ/٩٠٥م) فدمرت مدينة القطائع بأستثناء الجامع ،وعاد هذا البلد الى حكم الخلافة المباشر.

المصادر /

١- ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

٢- ابن الاثير ،الكامل في التاريخ

٣- طقوش ،التاريخ الاسلامي الوجيز

أ.م.د اسراء طارق الجبوري

دويلات اسلامية

المرحلة الرابعة /قسم التاريخ